الجزيرة العربية
قبل
ظهور الإسلام

أولا : تمهيد الى تاريخ الجزيرة العربية :

بقيت الجزيرة العربية الى عهد ظهور الاسلام محوطة بالغموض لبعدها عن الاتصال بالعالم ، فكانت تعيش في شبه عزلة ، ولا نعرف الا القليل عن طبيعة حياتها الداخلية ، ولهذا كان من الصعوبة بمكان دراسة تاريخ العرب في تلك الحقبة الغابرة بالمنهج العلمى الدقيق الذى يعرفه العلم الحديث من كلمة التاريخ ·

وقد كان من المظنون الى امد قريب ان جزيرة العرب لم تنشا بها الحضارات والمدنيات في الزمن القديم مما يدل على أثر العرب في تقدم العالم او يؤكد صلتهم بتطور الانسانية في خطى الرقى والازدهار ، وان العرب لم تقم لهم قائمة من سياسة الحكم ونظام الملك ، ولم يعرفوا عهدا من عهود الدول القوية السلطان ، الواسعة النفوذ ، المرهوبة الجانب في العصور الماضية ·

ولكننا اذا صرفنا النظر عن اشارات وردت في الكتب المقدسة مثل القرآن الكريم والتوراة ، وعن كثير من اخبار العرب ورواياتهم التى لا يزال العلم الحديث يعدها من قبيل الاسلام ، فسنجد أن البحث والتنقيب الذى بدأ في جزيرة العرب منذ القرن التاسع عشر الميلادى قد صحح هذه الآراء وقلب تلك النظريات راسا على عقب واثبت ان الجزيرة العربية كانت مهدا كبيرا من مهود الانسانية وانها شاهدت كثيرا من الدول والممالك في عهود مختلفة ، كما كشف عن كثير من الآثار المادية التى تدل على ثقافة وحضارة ، وتحقق البحث ايضا من وجود آثار اخرى لم يكشف النقاب عنها بعد ، ولا تزال تتطلب الجهد والعناء في سبر أغوارها وتجلية اسرارها واستفسارها عن الحقائق التاريخية التى اقترنت بها ، زيادة على ما عرفه العلماء حتى الآن ·

بل لقد اثبت البحث في جغرافية الجزيرة العربية وطبيعة أرضها وتكوينها أنها لم تكن في القديم كما هي عليه الآن ، بل كانت شبه جزيرة بالمعنى الجغرافى الصحيح، تجرى فيها الانهار ، وتتكاثر الامطار ، وتنتشر البحيرات العذبة في شتى بقاعها ، ويعم الخصب اكثر ارجائها • وربما كان من آثار هذه الحقيقة ما رواه اخباريو العرب من ان المرأة كانت تسير شوطا قريبا حاملة سلة على رأسها فلاتلبث ان تمتلىء هذه السلة بالفاكهة من مختلف الثمار، وان الرجل لم يكن يحتاج الى زاد في رحلته للتجارة او غيرها من اليمن الى الشام اعتمادا على ما يجنيه في طريقه من خيرات الارض ، كما قد يكون من الشواهد على ذلك ما ورد في النقوش المسمارية وغيرها من ان الجزيرة العربية كانت تصدر الاخشاب والصمغ وغير ذلك من مواد البناء الى مختلف البلدان •

على انه ربما كان من أشد الفترات ظلاما في حياة الجزيرة تلك الفترة المصطلح على تسميتها (بالعصر الجاهلي) اذا فهمنا من هذه التسمية المرحلة السابقة على الاسلام بنحو قرن ونصف القرن من الزمان كما هو معروف في تاريخ الادب العربى ، فقد تجلت حياة البداوة في هذه الحقبة على اهالى الجزيرة في الوسط والشمال ، كما غلب عليهم في الجنوب الضعف والانحلال حيث تقلص سلطان الممالك القديمة ، ووجد الاجانب من احباش وفرس – من خلال التحكم في مصائر اهلها – مطمعا في السيطرة عليها بل مطمحا في الاستيلاء على الجزيرة كلها بواسطة أهلها أنفسهم ، وربما كان هذا هو التفسير الصحيح لحملتى ابرهة من الجنوب والفرس من الشمال الشرقي ، اذ كان الهدف من الاولى هو استخدام عرب الجنوب في غزو شمالى الجزيرة ثم الاستيلاء عليها كلها بالتضامن مع الروم ، ولما علم الفرس بذلك تحركوا من جهة الحيرة لاحباط الخطة الحبشية الرومية وسبق الروم – وهو خصومهم الالداء – الى هذا الانتصار العسكرى العظيم •

هذا التحلل والتفكك ، الي جانب الامية التى سادت العرب في هذه المرحلة الزمنية ، كان من شانه ان يفقد العرب حاستهم التاريخية اذا كانوا قد تمتعوا من قبل بهذه الحاسة ، فلم نجد لديهم أثرا ماديا أو كتابيا يسجل اطوار تاريخهم أويبين نظام حياتهم واسلوب معيشتهم ، كما لم نحصل عند الامم المجاورة لهم على بيانات كافية في توضيح هذا الجانب الزمني من حياة العرب لشدة تخلفهم في هذا العصر وقلة احتكاكهم بدول العالم كامة واحدة ذات كيان مستقل يشمل جميع فروعهم ويضم سائر انسابهم تحت نظام موحد •

وليس لدينا من تاريخ هذا العصر الجاهلي الا مجموعات من الاخبار والروايات التي تناقلها اخباريو العرب جيلا عن جيل ، واضيف اليها كثير من الاساطير والشروح والتفاسير ، ولم تصل هذه المعلومات الى تدوين كتابى الا في زمن متاخر عن زمن مصادرها اى منذ اواسط القرن الثانى للهجرة . وطبيعى ان مثل هذه الاخبار ابعد ما تكون عن ان تقدم أساسا تاريخيا صحيحا ، او تعتبر وثائق تستقى منها المعلومات وتستخلص النتائج ، ومن ثم نجد أن من تصدوا لتاريخ العصر الجاهلي يختلفون كثيرا في اكثر جزئيات هذا التاريخ ، ولعلهم لم يصلوا بعد الى راى حاسم في معرفة انساب العرب وتحديد عناصرهم ، وتمييز اقسامهم وطبقاتهم ، ولذلك ايضا نجد المؤرخين المحدثين ـ وبخاصة الاوربيين ـ اذا تعرضوا لتاريخ جزيرة العرب اقتصروا على تاريخ عرب الجنوب ومن تفرع عنهم في الشمال كالثموديين واللحيانيين ، وربما تجاوزوا ذلك الى دراسة كل من وجدت لهم نقوش من سكان الجزيرة واطرافها كالنبط والتدمريين .

اما عرب الجاهلية بالمعنى الذى نقصده هنا فانهم يضربون عنهم صفحا في التاريخ العلمى لندرة ما يجدونه من المصادر التى يعتمد عليها في ذلك ، ولكننا مع ذلك سنظل مجبرين الى الرجوع الى هذه المصادر من الاخبار والروايات ، واستفسارها عن حقيقة الجزيرة العربية واهلها في العصر الجاهلى الى ان يهتدى العلم الحديث الى وسائل اخرى تميط اللثام عن بيانات مؤكدة وحقائق ثابتة .

وقصارى هم المؤرخ الحديث تجاه هذه المصادر المضطربة ان يسلك فيها سبيل الموازنة والمقارنة ومقابلة الاخبار بعضها ببعض ، وعرضها على ما بقى من تراث ادبى للعرب في هذا التاريخ ، على أن يؤخذ هذا التراث الادبى ايضا بحذر كبير لكثرة المنحول عليه ، والمضاف اليه . كما على المؤرخ الحديث أيضا ان يتلمس الاصداء ويترسم الظلال التى تركتها حياة العرب في البلدان المجاورة وما يمكن ان يكون هناك من آثار اتصال واحتكاك بين افراد من العرب على الاقل وبين غيرهم من الامم او الشعوب . وقد يكون من المفيد أن نعرض لمعنى كلمة « الجاهلية » وأن نحدد العصر الجاهلى ، قبل ان نفصل القول في الجزيرة العربية من وجهة نظر قدامى الجغرافيين العرب .

ثانيا : معنى لفظ الجاهلية وتحديد العصر الجاهلى : (١)

اعتاد المؤرخون تسمية تاريخ العرب قبل الاسلام باسم التاريخ الجاهلى اوتاريخ الجاهلية ، وقد فهم جمهور من الناس ومنهم طائفة من المستشرقين ان الجاهلية من

الجهل الذى هو ضد العلم ، او من الجهل بالله سبحانه وتعالى ورسوله وشرائع الدين ولذلك قالوا في الانجليزية : « The time of Ignorance » • ولهذا السبب اطلق المسيحيون على العصور التى سبقت المسيح والمسيحية اسم « ايام الجاهلية » او « زمان الجاهلية » • غير ان هذا المعنى لم يكن المقصود من هذه الكلمة وانما هو « السفه » (٢) والطيش والحمق والغضب ، وهي امور كانت جد واضحة في حياة العرب قبل الاسلام او بعبارة ادق في العصر السابق له مباشرة وكل ما كان فيه من وثنية واخلاق قوامها الحمية والاخذ بالثار واقتراف ماحرمه الله ومانهى عنه الدين الحنيف • ويقابلها « الاسلام » وعماده الخضوع لله والانقياد له •

وقد وردت كلمة الجاهلية في القرآن الكريم بهذا المعنى الاخير في مواضع عديدة: فجاء في سورة الفرقان : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا ، واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » •

وفي سورة البقرة : « قالوا أتتخذنا هزوا قال اعوذ بالله ان اكون من الجاهلين »

وفي سورة الاعراف : « خذ العفو وامر بالعرف واعرض عن الجاهلين » •

وفي الحديث الشريف ان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لابى ذر وقد عير رجلا بامه : « انك امرؤ فيك جاهلية » • وجاء ايضا في الحديث الشريف :

« اذا كان احدكم صائما فلا يرفث ولا يجهل » •

وبهذا المعنى تقريبا جاء في معلقة عمرو بن كلثوم التغلبى :

الا لا يجهلن أحد علينا   فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وقد اختلف المفسرون في المراد من الجاهلية الاولى في قوله تعالى :

« وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى » •

فقيل الجاهلية الاولى هى التى ولد فيها ابراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ ، والجاهلية الاخرى هى التى ولد فيها محمد ـ عليه السلام ـ ، وقيل الجاهلية الاولى هى الفترة الواقعة بين عيسى ومحمد ـ عليهما السلام ـ •

ومن هنا ظهرت النظرية التى تقول بوجود جاهليتين : جاهلية اولى وجاهلية

ثانية • ثم اختلف بعد ذلك في تحديد زمن كل من الجاهليتين ، غير ان الذى يفهم من كتب الحديث أن اصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانوا يفهمون من « الجاهلية » الزمن الذى عاشوا فيه قبل الاسلام وقبل نزول الوحى ، فكانوا يسالون الرسول عن احكامها وعن موقفهم منها بعد اسلامهم ، وعن العهود التي قطعوها على انفسهم في ذلك الوقت • وقد اقر الرسول بعضها ونهى عن بعضها الآخر •

وهذا يدل على ان هذا المعنى كان قد تخصص منذ ذلك الحين واصبح للفظة « الجاهلية » مدلول خاص في عهد الرسول •

واعتقد ان ثمة عاملا لغويا كان له تاثيره في هذا التقسيم ، فالباحثون في الادب الجاهلى لا يتسعون في الزمن هذا الاتساع ، اذ لا يتغلغلون به الي ما وراء قرن ونصف من البعثة النبوية ، بل يكتفون بهذه الحقبة الزمنية وهى الحقبة التى تكاملت للغة العربية منذ اوائلها خصائصها ، والتى جاءنا عنها الشعر الجاهلى • ولاحظ ذلك الجاحظ بوضوح اذ قال :

« أما الشعر (العربى) فحديث الميلاد صغير السن ، أول من نهج سبيله وسهل الطريق اليه امرؤ القيس بن حجر ومهلهل بن ربيعة •• فاذ استظهرنا الشعر وجدنا له ـ الى أن جاء الله بالاسلام ـ خمسين ومائة عام ، واذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتى عام » (٣) •

وهى ملاحظة دقيقة ، لان ما قبل هذا التاريخ في الشعر العربى مجهول • وهذا ما ذهب اليه ابن خالويه ايضا في ان هذه اللفظة أطلقت في الاسلام على الزمن الذى كان قبل البعثة النبوية •

ثالثا : جغرافية الجزيرة العربية :

تحديد الجزيرة : (٤)

كان العرب يفهمون معنى الجزيرة كما نعرفه اليوم ، ويسمون بلادهم جزيرة بهذا المعنى ويرون أن الانهار والبحار تحيط بها من جميع الجوانب •

ولعل اول ما وصلنا من ذلك هو ما نقله ياقوت في (معجم البلدان) عن أبى المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبى مسندا الى ابن عباس رضى الله عنه قال : « وانما سميت بلاد العرب جزيرة لاحاطة الانهار والبحار بها من جميع اقطارها

واطرافها ، فصاروا منها في مثل الجزيرة من جزائر البحر » •

ومعنى ذلك أن بلاد العرب ـ وان كانت تحيط بها البحار من ثلاث جهات فقط وهى الشرق والغرب والجنوب ـ فان نهر الفرات يحفها من الشمال الشرقى الى الشمال منعطفا عليها الى مسافة قريبة من البحر الابيض المتوسط عند مدينة قنسرين

وعلى ذلك فان العرب يدخلون في جزيرتهم كلا من سوريا ولبنان وفلسطين كما يتضح ذلك من تفسير ابن الكلبى عند ياقوت في مادة : (جزيرة العرب) • واذن فحدود الجزيرة عند العرب هى :

بحر عمان ، ثم خليج العرب (الخليج الفارسى) والمحيط الهندى وخليج عدن جنوبا والبحر الاحمر (بحر القلزم) ثم سيناء والبحر الابيض غربا ، ونهر الفرات الى قنسرين في الشمال الغربى من سوريا شمالا •

وربما كان السبب في تحديد ابن عباس او ابن الكلبى جزيرة العرب على هذا النحو هو ما احس به العرب الفاتحون في اول التاريخ الاسلامى من تقارب سكان سوريا وفلسطين وسيناء مع سكان بلاد العرب الاصلية في الجنس واللغة وطبيعة الحياة•

ومعروف ان اكثر سكان تلك البلدان ـ ان لم يكن كلهم ـ كانوا من أصل سامى صادر عن جزيرة العرب في ارجح الاقوال ، كما كانت لغاتهم تتشابه الى حد كبير مع لغات عرب الجزيرة الاصليين • اما علماء الغرب فيجعلون الحد الشمالى لجزيرة العرب خطا وهميا يمتد من خليج العقبة الى مصب دجلة والفرات المسمى (شط العرب) وعلى ذلك يكون النفود الشمالي المسمى قديما بالدهناء او رملة عالج ، وهى تسمية اخرى للنفود ـ حدا يفصل ارض الهلال الخصيب عن شبه الجزيرة •

وقد يكون هذا التحديد سياسيا اكثر منه جغرافيا طبيعيا ، لان طبيعة ارض الهلال الخصيب من الناحية الجيولوجية والطابع الصحراوى العام لا تختلف عن سائر انحاء الجزيرة • اما التحديد العربى فهو اقرب الى التحديد الطبيعى ، لان الاصل في الحدود ان تكون أنهارا أو بحارا أو جبالا شامخة تفصل بعض البلاد عن بعض أو صحارى كذلك •

ولقد كان قدماء المصريين يعدون كل ما هو شرقى بلادهم الى حدود بابل بلادا واحدة يسكنها العرب ، وهذا مما يؤيد التحديد العربى القديم •

تقسيم الجزيرة :

على اننا من ناحية اخرى اذا نظرنا في تقسيم العرب لجزيرتهم ، نجدهم يدخلون سوريا ولبنان وفلسطين في ذلك التقسيم •

فالعرب ـ كما تدل على ذلك اشعارهم واخبارهم ـ يقسمون الجزيرة خمسة اقسام هى :

تهامة • والحجاز • ونجد • والعروض • واليمن •

وجميع هذه الاقسام ـ اذا تبيناها ـ واقعة في داخل الجزيرة حتى بادية الشام ولا تدخل فيها الشام وما والاها •

ونحن ازاء ذلك لا نجد سبيلا لحل هذا التعارض الا ما اشرنا اليه آنفا من أن بلاد العرب الاصلية هى شبه الجزيرة الى حدود بادية الشام فقط، فهذا هو المهد العربى الحقيقي الذى يضم بين جوانبه العرب الخلص ـ بصرف النظر عن الفروع التى تفرعت من الجزيرة واخذت اسماء اخرى •

اما تحديد ابن عباس فهو مبنى ـ فيما يظهر ـ على الناحية الجيولوجية أولا ولعله لوحظ فيه ايضا ما وجده المسلمون عند الفتح في سوريا ولبنان وفلسطين من انساب عربية أو قريبة الى العربية ومن لغات تمت الى لغة العرب بقرابة ظاهرة •

فاقسام الجزيرة عند العرب هى خمسة • واساس هذا التقسيم عندهم هو جبل السراة ، وهو أعظم جبال العرب ، وبالاحرى هو سلسلة جبال تمتد من اليمن جنوبا الى اطراف بادية الشام شمالا في موازاة البحر الاحمر حيث تقترب منه هذه الجبال في عدة مواضع ، وهى تتفاوت في الارتفاع والانخفاض ومتوسط ارتفاعها نحو خمسة آلاف قدم ، وتصل أحيانا الى ارتفاع اكثر من ذلك حيث تبلغ زهاء ١٢٣٣٦ قدما في ارض اليمن• وهذه السلسلة الجبلية تقسم جزيرة العرب قسمين : غربى وشرقى:

١ ـ القسم الغربى : وهو اصغر القسمين ينحدر انحدارا شديدا من سفوح جبال السراة حتى يصل البحر الاحمر ، ومن أجل شدة هذا الهبوط والانحدار سمى هذا القسم (تهامة) او الغور ، أى الارض المنخفضة ، وهى منطقة ساحلية ضيقة على ساحل البحر الاحمر تمتد من اليمن في الجنوب حتى أطراف بادية الشام •

هذه هى تهامة عند اطلاق هذا اللفظ ، وان توسع فيها العرب فاطلقوها على المنطقة الممتدة من ساحل البحر الاحمر حتى المنحدر الشرقى لسفوح جبال السراة .

ولكن العرب كانوا يضيفون اسم تهامه الى اسم القسم الذى تحاذيه من اجزاء الحجاز واليمن ، فكانوا يقولون : « تهامة الحجاز ـ وتهامة عسير ـ وتهامة اليمن » اى الارض المنخفضة المقابلة لتلك الاجزاء ، بل كان العرب يطلقون ايضا اسم تهامة على كل ارض منخفضة حسب المعنى اللغوى ، فقالوا : تهامة العروض ، وغير ذلك من الاقسام الواقعة في شرقى الجزيرة .

واكثر اجزاء تهامة رملى شديد الحرارة قليل الانبات ، وتقع فيها كثير من المرافىء العربية مثل جدة وينبع في الحجاز ، والحديدة والمخا في بلاد اليمن وتقع في شمال هذه المنطقة ميناء صغيرة تعرف باسم الوجه ، وهى عبارة عن بلدة صغيرة تشتمل على عدد قليل من البيوت الحجرية . ويرى بعض المستشرقين أن هذه المدينة كانت ميناء مدينة الحجر المعروفة الان باسم (مدائن صالح) . وتقع جنوبى ميناء الحجر هذه مدينة الحوراء التى يقال انها : موضع المدينة القديمة Leuk Kome ليوك كوما التى انشاها اليونان على ساحل البحر الاحمر لحماية السفن من غزوات العرب ، كما كانت مرفا سفن مصر المتجهة الى المدينة ، ومن هذا الميناء ايضا صدرت غزوة الرومان لبلاد اليمن سنة ٢٤ قبل الميلاد تحت قيادة القائد الرومانى اليوس جاللوس ، وقد باءت هذه الغزوة بالفشل وعادت من حيث اتت .

وعلى محاذاة المنطقة الساحلية المذكورة توجد هضاب ونجود متصلة بها كما سبق ان ذكرنا ، وتقع مكة المكرمة في المنطقة المحاذية لتهامة الحجاز كما تقع زبيد وبيت الفقيه في المنطقة المحاذية لتهامة اليمن .

٢ ـ القسم الشرقى وهو اكبر القسمين ، ينحدر شرقى جبل السراة في تدرج بطيىء ، ولهذا كان هذا القسم اعلى كثيرا من تهامة ، وهو يأخذ في الاتساع والامتداد حتى يصل الى ارض العروض في الشرق ، اى اليمامة والبحرين وما والاهما .

ويسمي هذا القسم ارض نجد ، اى الارض المرتفعة لانها هضبة عالية في قلب الجزيرة ولذا تسمى في الانجليزية : "The heart of arabia "

ويبلغ متوسط ارتفاع هذه الهضبة ٢٥٠٠ قدم وتتخللها أودية وتلال ترتفع عن سطحها بضع مئات من الاقدام في بعض الاحيان . ويقسم علماء العرب نجدا الى قسمين هما : ١ ـ نجد العالية ٢ ـ نجد السافلة .

اما نجد العالية فهى مايلى الحجاز ، ونجد السافلة او الواطئة فهى ما يلى بلاد

العراق • وكانت نجد حتى القرن السادس الميلادى ذات غابات واشجار وبخاصة في المنطقة الواقعة جنوبى وادى الرمة في عالية نجد ، اى قريبا من جبال شمر في الشمال، وتقع ارض طيىء في شمال نجد حيث يفصل بينها وبين صحراء النفود جبلا أجا وسلمى

وصحراء النفود وكانت تعرف قديما باسم الدهناء ، وكذلك باسم رملة عالج ، ولكن غلب عليها اسم النفود بعد ذلك •

ويسمى القسم الشرقى من نجد باسم : الوشوم • ولكن ياقوتا عده في معجمه من اليمامة • ويسمي سهل نجد الفسيح الممتد بين الوشوم في الشرق وحرة خيبر في الغرب وجبال طيىء في الشمال ـ يسمى القصيم ، والقصيم : في اللغة هو الرمل الذى ينبت شجر الغضا ، والغضا شجر من الاثل ، ويعرف أهل نجد باسم أهل الغضا لكثرته في نجد وان كان ينبت أيضا في أماكن أخرى من الجزيرة العربية •

جبال السراه (سراة عسير والحجاز) :

اما سلسلة جبال السراة نفسها فهي تعرف بارض الحجاز ، وهى تلك المنطقة الجبلية العالية الحاجزة بين نجد وتهامة ، وتمتد من شمالى مدين الى حدود اليمن • وبعض العلماء يعد منها أيضا تبوك وفلسطين ، ويسمي القسم الشمالى من الحجاز مدين ، ويسمي ايضا حسمي : ويطلق حسمي على سلسلة من الجبال تتجه من الشمال الى الجنوب وتتخللها أودية محصورة بين التيه وايلا من جهة وبين ارض بنى عذرة من جهة اخرى •

وكانت قبائل جذام تسكن أرض حسمي هذه في الجاهلية ، وفي الوقت الحاضر يسكنها عرب الحويطات ، ويعتقد بعض المستشرقين أنهم من بقايا النبط •

وتتخلل ارض الحجاز اودية كثيرة اهمها وادى القرى : وهو واد مشهور بين مدينة العلا والمدينة المنورة ، وكان يمر به طريق القوافل القديمة بين جنوبى بلاد العرب وبين سوريا ومصر •

ومدينة العلا من اهم المناطق القديمة الواقعة في ذلك الوادى ، ويعتقد انها في مكان المدينة القديمة المذكورة في العهد القديم (التوراة) دادان ، وفي وادى القرى ايضا تقع مدينة قرح : وهى المدينة التي كان فيها هلاك قوم النبى هود (أى قوم عاد) • ويذكر رواة العرب ان مدينة قرح هذه كانت من الاسواق الكبيرة في الجاهلية الاولى ، اذ كانت تقع عند ملتقى طريق مصر القديم بطريق الشام ، وكان يسكن هذه المدينة في الجاهلية قبائل بلى بن عمرو بن الحاف بن قضاعة •

ومن مدن وادى القرى أيضا الحجر : المعروفة بمدائن صالح ، كما تعرف ايضا باسم (البطراء او البتراء) ـ وهى باللاتينية Petra

وكانت مدينة الحجر هذه ، من اهم المدن القديمة في شمال الحجاز اذ كانت ايضا منزلا هاما من منازل الطريق التجارى بين جنوبى بلاد العرب وبين سورية ومصر ، كما كان يخرج منها فرع من الطريق المذكور وبابل بمحاذاة الحافة الجنوبية لصحراء النفود او الدهناء ، وكان يتفرع منها كذلك طريق الحجاج الى مصر والشام والعراق

وقد عثر الباحثون في وادى القرى على كثير من الكتابات العربية الجنوبية القديمة ، كما عثروا على كثير من الكتابات العربية الشمالية كالثمودية واللحيانية والنبطية •

وقد ذكرنا أن ميناء مدينة الحجر التى كانت تسمى الوجه في ارض تهامة ، وكانت تنتهى عند هذا الميناء ارض قبائل بلى بن عمرو : وهى قبائل يمنية قديمة كانت تسكن في منطقة قبائل ثمود بين ارض جهينة وارض جذام كما كانوا يسكنون جزيرة سيناء ، أى أن منازلهم كانت تقع بين ينبع ويثرب من جهة وبين حدود ارض مصر من جهة اخرى •

اما قبائل جهينة فكانت تسكن عند ميناء قرح ، كما كانت قبائل عذرة بن سعد ابن الحاف بن قضاعة اليمنية تسكن كذلك بين وادى القرى ومدينة الحجر •

وتقع في الحجاز ايضا مدينة يثرب ، وان قيل ايضا انها تقع في نجد لقربها من نجد • ويثرب : هى مدينة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهى تقع في ارض بركانية بين حرتين ـ والحرة : (هى الحجارة السوداء) ـ شمالى جبل احد •

ومن اودية المدينة وادى العقيق : وهو من اخصب الاودية واجملها وفيه منازل وقصور وقرى •

ومن اودية يثرب ايضا وادى بطحان : وكان يسكنه بنو النضير ، وهم حى من يهود خيبر •

وثالث اودية المدينة هو وادى قناه : وهو ياتي من الطائف ثم ينتهى عند اصل قبور الشهداء في جبل احد ، وفيه زرع وحرث ومال •

وتقع الطائف : ايضا في الحجاز ، وهى على بعد ٧٥ ميلا الى الجنوب الشرقى من مدينة مكة • وسميت طائفا فيما يقال لحائطها الذى كان يحيط بها ، وتسمى

الطائف ايضا وادى وج : وهى أرض مرتفعة ممتدة على ظهر جبل غزوان ، ويبلغ ارتفاعها نحو ٥٠٠٠ قدم من سطح البحر .

وقد عثر في الطائف على نقوش قديمة ، وكان اكثر سكانها عند ظهور الاسلام من ثقيف ، كما كان يساكنهم بطون من حمير . وتحف بالطائف أودية كثيرة تسيل فيها المياه في موسم الامطار ، وحولها عيون ومياه وآبار كثيرة .

وفي جنوبى مكة ايضا جبال كانت تسكنها هذيل ، كما كانت هذيل تسكن ايضا في الجبال بين مكة والمدينة ، وهذه الجبال تسمى سراة هذيل ، وكانت تجاورها قبائل سليم وكنانة .

العروض واليدامة :

والقسم الرابع من الجزيرة عند العرب هو العروض ، والعروض في الاصل هو الشىء المعترض ، وتطلق ايضا على الجانب .

ويحدد ابن الكلبى العروض بانها عبارة عن بلاد اليمامة والبحرين وما والاهما . ولعل سبب تسميتها عروضا هى وقوعها في جانب من الجزيرة أو من هضبة نجد وقيل لان عمرانها آخذ بالعرض على خلاف بقية أجزاء الجزيرة فان عمرانها يمتد طولا من الجنوب الى الشمال . ويطلق لفظ العروض ايضا ـ في الكتب العربية ـ على مكة والمدينة واليمن . كما يطلق ايضا على مكة والطائف وما حولهما . كما يقال ان العروض هو ما خالف ارض العراق من ارض العرب . . وكل ذلك غير مراد هنا .

واغلب ارض العروض صحارى وسهول ساحلية ترتفع في الجهات الغربية عن ساحل البحر . وتشمل العروض اليوم منطقة كبيرة ، تشمل البحرين والاحساء وقطر واليمامة .

البحرين :

وبلاد البحرين كانت تطلق قديما بمعنى يساوى لفظ العروض ، وكانت تشمل المنطقة الممتدة من البصرة الى عمان ، وهى تشمل ـ كما ذكرنا ـ الكويت والاحساء وقطر والبحرين في العهد الراهن .

اما اليوم فهى اسم امارة قائمة في مجموعة من الجزر تقع في وسط خليج العرب

منفصلة عن ساحل قطر والاحساء ، وكانت هذه الجزر تسمى قديما تيلوس Tulos وهى عبارة عن جزيرة البحرين وجزيرة المحرق وأم نعسان وسترة وعدد آخر من الجزر الصغيرة القليلة الاهمية .

الكويت :

منطقة تقع بحذاء البصرة ذات ارض سهلة منبسطة في الغالب واكثر سواحلها رملية عدا بعض الهضاب او التلال الباردة واكثر ما يزرع بها النخيل حيث تتيسر المياه ، وليس هناك من الانهار غير مجرى صغير او نهير يقال له المقطع يصب في البحر . وماء الشرب في الكويت أحدى المشاكل لان أغلب الابار بها ملح أجاج ، ولذلك تجلب المياه أحيانا من شط العرب ، كما يعتمد اليوم كثيرا على تقطير مياه البحر . ومن أشهر مدن الكويت مدينة الكويت العاصمة ومدينة الجهره ، وهى تقع في منطقة زراعية خصبة ذات آبار على مقربة من خليج الكويت .

والمظنون ان الخندق الذى ذكر أن سابورا ذا الاكتاف أمر بحفرة ليحمى ارض السواد ـ وهى العراق قديما ـ من غزو الاعراب ، المظنون أن هذا الخندق كان ينتهى شمالى (الكويت) عند خليج كاظمة .

الاحساء :

وكانت تطلق قديما ايضا على المنطقة الممتدة من البصرة الى عمان ، اى التى كان يطلق عليها ايضا اسم البحرين ، اما اليوم فهى جزء من المنطقة الشرقيه في البلاد السعودية وتقع جنوبى الكويت ممتدة الى حدود قطر ، وكانت تعرف قديما باسم هجر .

والقسم الاكبر من الاحساء سهل صحراوى يرتفع في الجهة الغربية أيضا عن ساحل البحر ويتخلله كثير من التلال الممتدة في اتجاه وادى المياه وجبل الطف . واهم اودية الاحساء وادى فروق في الجنوب الغربى ، وهو قسم من وادى المياه ، والقسم الساحلى من الاحساء ارض سبخة على وجه العموم بها عدد كبير من الآبار القريبة المياه من سطح البحر ، والمراعى بها وافرة ، وأغنى بقاع الاحساء هما واحتا الاحساء والقطيف حيث تكثر المياه من آبار وأنهار صغيرة تشبه البحيرات . وعلى العموم فمنطقة الاحساء مشهورة بمياهها الكثيرة واشجارها في كل مكان ، وتساعد

كثرة المياه على زراعة الارز ولكن المحصول الرئيسى هو التمر الكثير الانواع ، وافضله النوع المعروف بالخلاص .

وكان يسكن هذه المنطقة قبل الاسلام خلق كثير من بنى عبد القيس وتميم وبكر ابن وائل ، وكانت حينذاك تحت حكم الفرس ، ووجه اليها الرسول صلى الله عليه وسلم ـ العلاء بن عبد الله الحضرمى فاسلم أهلها من العرب وبعض المجوس وصالحه الباقون على الجزية ، والاحساء اليوم جزء من المملكة السعودية .

قطر :

وهى شبه جزيرة تمتد من الاحساء شمالا الى حدود عمان جنوبا ، ومعظم اراضيها صحارى ، وبها واحات قليلة يزرعها السكان على مياه الابار ، وكانت تعرف قديما بانواع من الثياب والمنسوجات التى تصدر الى الخارج ، كما عرفت بتصدير النجائب والنعام .

اليمامة :

والقسم الثانى من اقسام العروض هو اليمامة ، وكانت تعرف قديما باسم الجو ويعدها ياقوت من ارض نجد ، واشتهرت في الكتب العربية بانها موطن طسم وجديس وكانت عامرة ذات قرى ومدن عند ظهور الاسلام . ومن قراها منفوحة ، وبها قبر كان ينسب للاعشى الشاعر ، وقرية سدوس وكانت من المدن القديمة ، وبها الآن آثار كثيرة ، وعثر على تمثال كبير يبلغ قطره ثلاثة اقدام في ارتفاع ٢٢ قدما . ومن قراها ايضا القرية ، ويبدو انها كانت مدينة كبيرة راى الهمدانى بجوارها آبارا وكنيسة منحوتة في الصخر .

وذكر ياقوت ان ارض اليمامة كلها كانت تسمى باسم هذه القرية اى (القرية) كما كانت تسمى الجو ، وعثر في القرية على آثار ذات اهمية كبيرة لانها اول نقوش بالعربية الجنوبية توجد في هذا الموضع وتعود الى ما قبل الميلاد ، ويبدو انها من آثار السبئيين ، كما يظهر ايضا ان هذه المدينة القديمة كانت تتحكم في الطريق التجارى من اليمن الى العراق وارض فارس عن طريق نجران .

وعلى مقربة من القرية آبار تسمى العويفرة . ويرى بتراندتوماس : ان هذه المنطقة هى موضع مدينة او فير القديمة التى اشتهرت بالذهب وورد ذكرها بالتوراة كما اشتهرت ايضا بالطواويس . وبتراندتوماس يرى ان اسمها العربى القديم عفر فحرف في العبرية او اليونانية الى " Ofar أو Ophir "

والظاهران عامل الجفاف اثر كثيرا في اليمامة وفي اواسط شبه الجزيرة عامة فحول اكثر اراضيها الىصحارى بعد انكانت غزيرة المياه تزدهر فيها الزروع والثمار وجدير بالذكر ان مدينة الرياض (٥) عاصمة المملكة السعودية تقع فياليمامة •

اليمن :

والقسم الخامس من الجزيرة عند جغرافيي العرب هو القسم الجنوبي منها ـ اى بلاد اليمن ، وكانت اليمن تطلق في النصوص العربية الجنوبية على منطقة صغيرة بالقياس الىالتقسيم العربى المتاخر اذ كانت تذكر الى جانب مناطق سبا وذى ريدان وحضرموت وغيرها •

اما الجغرافيون العرب المتاخرون فيطلقون اليمن على منطقة كبيرة تمتد حدودها من تهامة الى العروض ، وهى تشمل اقساما مختلفة من النجود والتهائم مثل تهامة عسير فيالقسم الشماليالغربى وهى تابعة اليوم للسعودية ، ومثل تهامة اليمن : وهى سهل خصيب تنحدر اليه اودية من الجبال المحاذية للساحل ، وهذه الجبال هى امتداد لجبل السراة الضارب في الجزيرة العربية من شمال الحجاز الى شمال عدن ، وتمتد وراء تلك الجبال نحو الشرق هضاب فسيحة تتدرج في الهبوط حتى تنتهى الى فلاة بعيدة الارجاء تمتد الى صحراء الدهناء كما تتصل ايضا بصحراء (صيهد) المعروفة اليوم باسم (الربع الخالى) ، وفي الجنوب الشرقى من تهامة اليمن تقع منطقة عدن وتسيطر عليها عدة هضاب يخترقها عدد من الاودية التى تبدو انها بقايا انهار جافة • ويلى منطقة عدن نحو الشرق منطقة حضرموت الممتدة على ساحل بحر العرب او بحر اليمن من شرقى بلاد اليمن او منطقة عدن الى منطقة سيحوت الواقعة عند مصب وادى حضرموت غربا ، وتنتهى في الشمال الى منطقة الربع الخالي ، ومن شرقى سيحوت تبدا سواحل مهرة التى تعرف عند الجغرافيين العرب باسم الشحر ، ولكن اسم الشحر يطلق اليوم على الميناء الغربى لبلاد مهرة فقط ، ويعرف اليوم الاقليم الممتد من سيحوت الى حدود عمان باسم ظفار ، وهذه غير القديمة الواقعة في منطقة تهامة اليمن عند جبل ريدان والتى قيل فيها : « من دخل ظفار حمر » ، اى كان عليه ان يتعلم الحميرية او يتكلم بها • وترتفع منطقة ظفر الشرقية الى ٣٠٠٠ قدم فوق سطح البحر ، وتنمو على جبالها أشجار الكندر التى اشتهر بها جنوبى الجزيرة قبل الاسلام •

عمان :

ثم تلى منطقة ظفار هذه منطقة عمان : وهى ارض جبلية ذات هضاب متموجة

وسهول ساحلية ، وفي بعض انحائها عيون ومجارى مياه معدنية ، شديدة الحرارة في أكثر الاحيان ، وأعلى قمة بها هى قمة الجبل الاخضر التى يبلغ ارتفاعها الى ٩٠٠٠ قدم ، وتحيط بهذا الجبل أراض خصبة •

وفي عمان مدن قديمة منها صحار ودبا وكانت قديما من المدن الهامة ، كما كانت سوقا من أسواق الجاهلية ، وسكانها من الازد ونزوة •

والعمانيون منالشعوب البحرية، ولهم صلات منذ القدم بسواحلافريقيا والهند•

تقسيمات أخرى للجزيرة العربية :

وهناك تقاسيم أخرى لشبه الجزيرة العربية بنيت على وجهات مختلفة من النظر ونكتفى هنا بذكر اثنين منها :

فجغرافيو اليمن : بوجه خاص يقسمون شبه الجزيرة العربية الى قسمين اثنين كما ذكر ذلك ابو محمد الهمداني في كتاب « صفة جزيرة العرب (٦) قال : «هى عند أهل اليمن (أى الجزيرة العربية) يمن وشام ، فجنوبها اليمن وشمالها الشام ونجد وتهامة » •

وفي هذا التقسيم تدخل العروض في اليمن لامتداد حكم اليمنيين اليها في حقب كثيرة من التاريخ القديم ، كما تدخل الحجاز ونجد في قسم الشام •

والظاهر ان لهذه التسمية أصلا فيالجاهلية ، فقد كان العرب يسمون ما كان عن يمين الكعبة للمتجه شرقا باسم اليمن ، وما كان عن شمالها باسم الشام • وفي لفظ اليمن معنى اليمين ، كما فى لفظ الشام معنى الشمال ، ومن ذلك قوله تعالى : « فاصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشامة ما أصحاب المشامة (٧) »

ويبدو أن كلمة الشام ترجع في أصل وضعها الى كلمة (شمال) التى ورد ذكرها في عدة كتابات مسمارية في عهد الملك شلمنصر (٨٦٠ـ٨٢٥ ق • م) وتجلتبليزر (٧٣٨ ـ ٧٣٤ ق • م) وأسرحدون (٦٨١ ـ ٦٦٨ ق•م) ـ واشوربا نيبال (٦٦٨ ـ ٦٢٦ ق • م) •

ولكن معناها في هذه النقوش هو المنطقة الارامية التى ازدهرت تحت حكم الاراميين في شمال سورية حوالى سنة ١٠٠٠ ق • م وما بعد ذلك • وفي معناها الاصلى معنى الشمال والشمال •

أما جغرافيو اليونان والرومان : (٨)

فهم يقسمون بلاد العرب الى ثلاثة اقسام طبقا للحالة السياسية التى كانت عليها هذه البلاد في القرن الاول للميلاد ـ وهذه الاقسام هى :

(ا) العربية السعيدة : Arabia Felix

(ب) العربية الصخرية او الحجرية : Arabia Petraea

(جـ) العربية الصحراوية : Arabia Deserta

ولم يظهر هذا التقسيم الا عند هيرودوت ، وعرفه سترابون Strabon ولم ياخذ به العرب مع انهم عرفوا جغرافية بطليموس •

(ا) فالقسم الاول هو القسم المستقل ، وهو اكبر الاقسام الثلاثة رقعة ، ويسمى ايضا اربيا بياتا Arabia Peata ويشمل كل المناطق التى يقال لها شبه جزيرة العرب في الكتب العربية ، وحدوده الشمالية غير ثابتة لانها كانت تتغير وتتبدل حسب الاوضاع السياسية • ويمكن القول انه كان يبدأ عند محاذاة مدينة السويس حاليا ممتدا الى الشرق والجنوب فيشمل وسط الجزيرة وجنوبها •

(ب) والقسم الثاني ، وهو العربية الحجرية كان يطلق على بلاد النبط ، اى الاراضي الجبلية والمرتفعات المتصلة بها في شرقي البحر الميت وشرقي وادى عربة ممتدا الى الخليج العربى المعروف باسم خليج العقبة ، كما كان يشمل ايضا شبه جزيرة سينا ، وقد ضم الرومان بلاد النبط بعد سقوط دولتهم سنة ١٠٦ م ـ الى المقاطعة العربية الرومانية التى كانت تعرف باسم اربيابروفنسيا ، اى المقاطعة العربية Arabia Provencia والظاهر من كلام تيود وروس الصقلى ان هذه المقاطعة كانت في شرقى ارض مصر وجنوبى البحر الميت (في جنوبه الغربى) ، كما كانت في شمال العربية السعيدة وغربها •

(جـ) والقسم الثالث ، هو العربية الصحراوية ، ولم يعين الكتاب اليونان والرومان حدودها تعيينا دقيقا ، ولكن المفهوم من كلامهم انهم كانوا يقصدون بها بادية الشام الفاصلة بين الشام والعراق ، ويكون نهر الفرات حدها الشرقى وكانت حدودها الشمالية وحدودها الغربية ، كانت تتبدل وتتغير حسب الاوضاع السياسية ، ويمكن ان يقال ان حدودها هى المناطق الصحراوية المجاورة للبلدان الزراعية في الشام وفي شمال هذه المنطقة وشمالها الشرقى كانت تقع مملكة تدمر التى كانت زينب او الزباء من ملوكها •

السيد احمد ابوالفضل عوض الله

الهوامش والمصادر

(١) راجع (العصر الجاهلى) للدكتور شوقى ضيف (الطبعة الثانية ، دار المعارف) ص ٣٨ ، ٣٩.

(٢) انظر مادة (جاهلية) فى دائرة المعارف الاسلامية .

(٣) كتاب الحيوان ، للجاحظ (طبعة الحلبى) جـ١ ، ص ٧٤ .

(٤) راجع « معجم البلدان » لياقوت ابى عبد الله الحموى الرومى البغدادى – ليبزج بروك هوس ١٨٦٦ م .

(٥) وكانت تسمى قديما باسم « حجر »

(٦) انظر كتاب (صفة جزيرة العرب) لابى محمد الهمدانى (طبع مصر) ، طبع ليدن سنة ١٨٨٤ م.

(٧) الأيتان ٨ر٩ من سورة الواقعة .

(٨) راجع (تاريخ هيرودوتس) « ٤٨٠ – ٤٢٥ ق . م » .